احتفاء بالرموز الثقافية والأدبية اختار
الاتحاد العام للأدباء والكتّاب في العراق
القاص والروائي **محمد خضير**
وسماً لمنشوراته عام 2021

كاظم جماسي

# كما لو أننا نولد للتوّ

سرود

2021

إلى..

الزهرة التي لم تكف لحظة

عن نشر عطرها في أرجاء حياتي،

سليمة طبعا..

# من أجل أن تكتب قصيدة واحدة

راينر ماريا ريلكه

من اجل قصيدة واحدة، عليك أن ترى مدنا عديدة، بشرا وأشياء كثيرة، عليك أن تفهم بأي لغة تتحدث الحيوانات، أن تحس كيف تحلق الطيور، وأن تعرف ماتومىء اليه الأزهارعندما تتفتح في الصباح، عليك أن تكون قادرا على العودة بأفكارك الى شوارع في ضواح مجهولة، الى لقاءات لم تتوقعها، والى فراقات تنبأت بها قبل ان تحدث بوقت طويل. الى أيام الطفولة .. أسرارها التي ما زلت تجهلها، الى أبوين آذيتهما حين أتياك بفرحة لم تشاركهما فيها'' ظننت انها فرحة للغير،،. الى أمراض الطفولة بأية غرابة بدأت وصاحبتها تحولات جمة، عميقة وصعبة، الى ايام هادئة أمضيتها صامتا، والى صباحات جوار البحر، الى البحر ذاته، الى البحار جميعها، الى ليالي سفر اندفعت فيها عاليا، وحلقت مع النجوم.

ولا يكفي كل هذا .. ينبغي أن تكون لك ذكريات عن ليالي حب كثيرة، كل واحدة تختلف عن ألأخرى. ذكريات عن نساء صرخن

طويلا من الالام الطلق .. عن فتيات مضيئات، شاحبات، نائمات ولدن للتو وللتو أنغلقن مرة أخرى.

عليك أيضا أن تكون قد سهرت قرب من يحتضر، أن تكون قد جلست قرب الميت في غرفة نافذتها مشرعة فيما الضوضاء تتفاقم خارجا.

وبعد .. ليس كافيا أن تكون لك ذكريات. عليك، حينما تكثر، أن تكون قادرا على نسيانها، وأن تصبر ريثما تعود اليك .. الذكريات بذاتها ليست مهمة إلا أذا تحولت الى دم فينا، الى نظرة وإشارة، وغدت من دون أسماء تميزها عن أنفسنا ..

آنذاك فقط، وفي ساعة نادرة، يمكن للكلمة الأولى للقصيدة، أن تنبثق، وتسير ببطء، متوجهة نحوك.

عن[ فراديس] العدد ٦/٧ نوفمبر ١٩٩٣

ترجمها عن الأنجليزية / سركون بولص

# الزورق

فيما السماء، على الضفة الأخرى من النهر، تقيم وسائد وردية وأراجيح وأسرة فارهة من نتف غيوم بيض، وتملأ فراغاتها ببالونات زرق بهيجة الهيئة، كان جان دمو، وقبالته قماشة سوداء مثبتة على حامل للرسم، منهمكا في تحويلها لبانوراما تكتظ، في قسمها العلوي بوجوه نضرة لأولاد وصبايا ينشجون بدمع مدرار، يساقط على شيبات رؤوس ولحى شيوخ وعجائز، ثم تجري في أخاديد غائرة في صفحات وجوههم الذابلة، محتشدين أسفل القماشة..

لم أشأ أن اعلن عن وجودي، ريثما يتم جان رسم بانوراماه وقد راحت تتخللها، هنا وهناك، توابيت مكسوة برايات وطنية تنشب في أطرافها نيران، تصاعد ألسنتها لتعبر الحافات العليا للقماشة، حتى أنك لتشم روائح الدخان، فيما تقطر حافاتها السفلى، ومن مواضع عدة، قطرات حمر قانية، راحت تشق مسالك لها عبر الجرف، ذاهبة نحو النهر ...

على حين غرة، ألتفت ألي جان فألفاني مأخوذا، أطيل التحديق في المشهدية الوحشية المرعبة التي خلفتها ريشته على القماش، صاح بي: ها ... ، أجبته مستفهما: ها ؟ ..، أشار بسبابته الى البانوراما: هذه

ضفة ..، ثم وهو يرفع ذراعه الى الأمام بإستقامة نظره، ويضيف: وتلك ضفة ..

بلهفة وظمأ مضاعفين سألته: وكيف العبور؟!

مالبث أن مد ذراعه في عبه، ليخرج قنينة عرق ملأى، ثم ليرفعها عاليا ويهتف مقهقها: هذا هو الزورق.

# تحرير

أفاق جان دمو، من رقدته، فزعا، على هاتف هتف به: قم ياجان وأملأ الأرض عدلا..، تلفت حوله فوجد نفسه في قلب الميدان المركزي للمدينة، محاطا بأكوام من قنان زجاجية فارغة، وصفوف متراصة من حافلات حمر لنقل الركاب، تحتشد نوافذها بأفواه فاغرة وعيون جاحظة تبحلق به.

كان الوقت، كما تشير ساعة الميدان منتصف الليل تماما، نهض من فوره متناولا قنينة فارغة ومضى يقطّر في حلقها ما تخلف من قطرات في قيعان القناني الأخر، ولما كان يفرغ من الواحدة يقيمها منتصبة خلفه ليتناول اخرى ثم أخرى..، كالرهوان متلبسا بفورة حماس منقطع الشبيه، حتى إذا أمتلأت قنينة كاملة بين يديه، التفت خلفه فرأى: متاهة من دروب كانت قد رسمتها صفوف القناني الفارغة..

لبرهة، وقف جان متفكرا..، مالبث حتى ولى وجهه صوب الحافلات، وراح يصعد الى الحافلة تلو الحافلة، يقطر قطرة واحدة من سائل القنينة فوق كل لسان من ألسنة الركاب المتدلية خارج أشداقهم، حتى إذا

سقى لسان آخر راكب في آخر حافلة، عاد متفحصا لوحات أرقام الحافلات ليتأكد من كونها تحمل العنوان ذاته" ميدان – حرية"....

كان الوقت، كما تشير ساعة الميدان، منتصف الليل تماما، لما ركض جان مقهقها متحشرجا ملء فيه، مطلقا، في الوقت عينه، أقذع شتائمه، عبر المتاهة، مشرعا ذراعيه تتبعه طائرة أسراب الحافلات .

# ارتقاء

* إلى الأخضر بن يوسف

بعد طواف متصل، دائب وحثيث، أستغرق أعواما طوالا من الأخاديد التي وشمت كهولتي المكابرة، سعيت بكد ونزف ومكابدة في سبل موحشة، تبيض كل خطوة جرح، ساعية بحقد مكين للأطاحة بي، تخفي عطفاتها على الدوام، غواية ما، تتغنج وتميس داعية إياي، مرة في هيئة وعل بري، يشير علي أن أمتطيه، غير أن المكابدة علمتني أن أتقي شر الغضب، فرفضت. ومرة في صورة نسر بعيون لامعة من ماس، يخفض جناحيه ويومئ ألي أن إركب، ألبث زمنا وأتذكر: أن للوهم موهبة التحليق، فأرفض. وثالثة في شكل أفعى لجلدها الأملس نعومة وطراوة مغريتين، خفت أن أنزلق فرفضت ..

بعد طواف متصل، دائب وحثيث، وصلت الى السفح، سفح مدجج بمدى باشطة، روّعت لمرأى أنصالها فذعرت، كيف لي، مع هذه الحتوف المؤكدة، عناق المرتقى، وقد أييسني النزف وأضناني الكد وأوهنتني المكابدة؟! .. مستنجدا تلفت، أيكون كل ذاك العناء المرير هباء؟ صرخت: لا .. وبعد لأي أغاثني حمار، أية وداعة وأي وفاء،

هفا إليه قلبي ورق، دعوته فأستجاب، أسبل أذنيه ورفرف مرتين برمشيه وأناخ لأمتطيه ففعلت.

بعد صعود متصل بهيج الى المرتقى، سوى أنه بطيء، تضافرت ضدي مخاطر أنكى وأهوال أشد، فيما صرخات الساقطين اليائسين، تسكب كل حين زيتا أخر على لهب السعير، ودابتي غير مبالية، تتخطى، بحذق لايبارى، شفرات الصخور وأنصال المخاطر ..

بعد زمن طويل طويل، من مجاهدة التسلق، الى المرتقى، وقد أمض بي التعب والجوع والعطش، تناهى الى سمعي هسيس ناضح بالفتنة، فمسني هلع ممتزج بإرتعاش، أيكون ترحيبا من الذروة، وقد بت قاب قوسين أوأدنى منها؟! أم أنها غواية الغوايات؟!

منوما مأخوذا ألتفت، فإذا بي وممشوقة هيفاء وافرة النعم تغمز لي... مساقا بلوعة الفضول وشهوة جارفة، تراخت قبضتي ففلت العنان ... متدحرجا رحت أرنو بنظر حسير الى دابتي ترتقي العرش مسرورة جذلى.

# تطريز

شتاءً أو صيفا، وعند الخيط البكر من نسيج الفجر، كل منهن تحكم نقاب وجهها جيدا، لتهرع متأبطة شوالاتها، وبعزم مقاتل مستميت ينطلقن نحو كل ناحية من نواحي المدينة الكبيرة، للأحتطاب..، يقطعن مسافات تطول أو تقصر بين مزبلة وأخرى، يجمعن علب البيبسي الفارغة بعد ان يدعكنها ليودعنها جوف الشوال، منهمكات بعملهن غير معنيات بمن راح أو جاء، حتى أذا أمتلأ شوال أحداهن، أحكمت إغلاقه جيدا ...، وفتحت آخر، ومضت تجمع وتجمع بذات الوتيرة من العزم والهمة، لاينقص من عزمهن، حين تكون المزابل شحيحة العلب، أو تكون مختبئة تحت أكوام نفايات لاحاجة لهن بها..

أعتادت أنوفهن المستترة خلف النقاب الأسود عطن ونتانة المزابل، ولم يعدن يعرن بالا لتلوث ثيابهن بالأتربة والدهون والأوساخ، لا سيما وأن سني شبابهن قد أفلت، ولم يطرق باب أنوثتهن طارق منذ زمن بعيد، وقد بلغت صغراهن اليوم مايزيد على الأربعين ..

لكل واحدة منهن حكاية مختلفة، سوى أنهن يجتمعن بذات المصير..، مصير تكتظ فيه الخسارات والخيبات والمرائر..

آخر كل نهار والشمس تهم بالمغادرة، يلتقين عند طرف من أطراف المدينة، حيث مخزن تاجر السلع العتيقة، يستقبلهن بوجوم كما هي العادة، يزن حمولاتهن وينقدهن أثمانها، ليقفلن راجعات بعد أن يتزودن بالطعام وحوائج أخرى..

كل مساء، السائر جوار المنزل العتيق، ذو الصالة والغرفة اليتيمة الواحدة، والجدران المغلفة بورق زاهي الألوان، يستنشق عبير طيب نادر المثيل، حيث يبدأ طقس خاص جدا تقيمه القاطنات، يغتسلن ويغسلن هدومهن ويضعن حفنة من خلطات بخور خاصة على كل مبخرة من المباخر المتوزعة في الأركان، ثم يجلين أرض المنزل وجدرانه، ويجتمعن أخيرا في الصالة كل تمسك بقماشتها البيضاء وإبرها الخاصة، بعد أن يكن قد تناولن عشاءهن، ليبدأن كدحا آخر، كدح من نوع خاص بهن وحدهن، غير أنه ممتع أيما متعة، يطرزن تحت ضوء واهن قماشاتهن ببلابل وحمائم وفراشات، كل طير من لون وكل جناح من لون، بل كل ريشة من لون، يجن الليل وهن منهمكات، يطرزن ويطرزن، تحتشد الطيور على وجه القماشة ولاتفيض، حتى يغبن عن الوعي، وتأخذهن سنة النوم ..

شتاء أو صيفا، وعند الخيط البكر من نسيج الفجر، يستيقظن فيجدن قماشاتهن بيضا ناصعات كما لم يمسسها أحد ..

# اكتشاف متأخر

بعد فوات الأوان، أكتشف الحقيقة، بعد أن علكه الجوع ومضغه العطش، وماء فحولته قد نشف، وأمسى رميم عظام محض، على الرغم من أنه، كان، في بعض محطات مشوار عمره، محاطا بداليات الثمر، وسلسبيل الجداول وفتنة الغوايات.

بعد فوات الأوان، أكتشف الحقيقة، أكتشف أن لاذنب له سوى برائته، بل حماقته القاتلة، يوم صدق بما أوصته به التعاليم المقدسة [ضع فوق عينيك عدساتنا المعتمة، وعلى فمك لجامنا الثقيل، وفي كفيك قفازاتنا، وتدرع دائما بالريبة إزاء كيد النسوان، وأكفخ بما أوتيت من حيل رؤوس شهواتك لحظة تشرأب ...]

بعد فوات الأوان، أكتشف الحقيقة، أكتشفها لحظة هشمت عدستيه حصاتان صغيرتان أطلقهما صبي لاه بصيد عصافير تمرح عابثة في كبد السماء .

# TRFFIC LIGHT

في المدن كلها، وكذا أية أرض مأهولة، وعبر الأزمان كلها، في رحلة العبور على الجسور الذاهبة صوب السعادة، قضت المراسيم جميعها، كهنوتية كانت أم ملكية أو جمهورية، ان الأشارات الخضر مخصصة لمرور المتخمين، من الرجال والنساء، بإخضرار النعم الوفيرة، فيما الأشارات الحمر، فمحددة حصرا للمكدودين النازفين قهرا وجوعا ومكابدة ...

لم يحدث، في المدن كلها، وكذا في المأهول من الأرض جميعه، و في الأزمان كلها أيضا، أن تشتعل الأشارات الصفر، سوى مرات معدودات، وفي مواعيد متباعدات، .... فقط حين يحدث نوعا من تماس داخلي، فتهتاج وتجن الأشارات الحمر، لتنلع حرائق كبرى فيختل النظام .

# اختيار

كنا فصيلا من ستة عشر جنديا وثلاثة نوابا للضباط وضابط غر بنجمتين، مكلفين بحراسة مجمع مركزي لمخازن مواد غذائية متخم بأصناف لاحصر لها، مقام على أرض شاسعة في عاصمة دولة شقيقة، غزاها [بطل التحرير القومي] رئيسنا الأشوس فأحال جنائنها حطاما مكتملا ..

بعد جوع مقيم طوال سنوات خدمتنا، كنا [محظوظين] ، إذ غدا الواحد منا عجلا سمينا تقطر إباطه دهنا .. فقط بعد اقل من شهر، بعد أن كان جلدا على عظم، حتى أن البعض حين يحين موعد إجازته الدورية، يتحايل في عدم التمتع بها، فيعرضها على من هو[ أحوج] منه أليها .. ذات غروب أقبلت من جهة الحي السكني القريب لموقعنا شابة لم تتعد العشرين، متلفعة بعباءة وتحمل رضيعا. كان الضابط الغر ذو الشاربين الثخينين جالسا على كرسي بباب المخازن، يحتسي من كوب حليب محلى بالكاكاو، أخبرته الفتاة بحاجة رضيعها الى علبة حليب[ نيدو] وقد نفد حليبه ..كانت المخازن تغص بإصناف حليب الأطفال ومن ضمنها ماطلبت .. صفن الضابط برهة وراح يتملى جسد الشابة التي

أطرقت ببصرها الى الأرض، نهض من جلسته وأخبرها أن تتبعه الى الداخل، تبعته، وليس سوى دقائق حتى سمعنا صراخها تستنجد، هرعنا جميعا اليها، وفهمنا أن ضابطنا يريد مقايضتها .. جسدها قبالة حليب وليدها ..

شهر على الفور ج.م عباس غضيب ثويني كلاشنكوفه وسحب أقسامها مسندا فوهة سبطانتها ببطن الضابط صارخا: والله والله إن لم تتركها سوف أملأ كرشك دخانا .وسرعا ما عاضدت كلاشنكوف عباس كلاشنكوفاتنا ولم يك الضابط يعرف من أين راحت تنهال عليه الصفعات والركلات مقرونة بأقذع الشتائم والبصقات ..

نهضت الفتاة تلملم عبائتها حاملة رضيعها، فيما أنبرى عدد منا لتجريد الضابط المستخذي من سلاحه وطرحه أرضا ومن ثم تقييده، وحمل عدد اخر عددا من كراتين الحليب وشيعوا الفتاة الى حيث مسكنها، وأبلغوها أن تخبرجيرانها أن المخازن تعود أليهم وليأخذوا ما يشاؤون منها..

فيما بعد وتحت جنح الليل، تبعنا جميعنا ن.ض قصي حسن ناصر، دليلنا البصري الى حيث يعود كل منا الى أهله، مجازا بإختياره الذاتي .. حتى الأبد .

# الأمر يستحق العناء

لا يدري أحد، حتى هو نفسه، متى أمسى موظفاً في سلك الخدمة المدنية، كما هو الشأن مع لحظة أن يولد المرء، بلا أية إرادة للأختيار..، كان كل ما يفعله هو الترقب طوال مدة خدمته، صعود الدرجة تلو الدرجة، بصبر نافد، في سلم الوظيفة، لعله يفضي به الى أريكة (الطمأنينة) الأخيرة..

أذا ما أزف موعد إستلام مرتبه الشهري، كان يصاب بحمى فرح نزقية، بدءاً من الليلة السابقة للموعد حتى لحظة أن يقبض على تلك الأوراق السحرية، يعدها متمهلاً، يشمها، يقبلها بشغف، ثم يدسها بهدوء في محفظته، ليركنها أخيراً داخل جيب لصق قلبه.

كل مطلع شهر، يعيش يوماً كهذا اليوم، يخرج في الصباح الباكر جذلاً على غير عادته، لا تسع الأرض بهجته، يموسق خطاه في شوارع المدينة، على أنغام متصاعدة من قيثارة روحه، يتطاول كيانه حد الأعتقاد بسطوة كلية القدرة على امتلاك كل شيء..، يزجي النهار حتى مقدم الليل، بغيرما هدى، متجولاً في كل جادة وعطفة من مدينته، مدينته التي عرفته، في أيامه الماضيات كائنا متحفظا، مستريبا،

يمشي، على الدوام، جوار الحيطان..، فيما اليوم، هاهو فارد الصدر، مقداما، يتطلع بكبرياء الى واجهات المخازن والمطاعم، أو يدخل أحدى دور السينما، يأكل سندويشاً، أو يحتسي قنينة ببسي، ثم يشتري علبة سجائر ويحدث أن يتخلى للباعة، مرة أو اكثر عما تبقى من "مبالغ" الشراء..

هذا اليوم، كان قدر قرر سلفاً، الأكتفاء بالتجوال والفرجة فقط، من دون أن يمس المحفظة التي لن يحظى من محتوياتها، طوال الثلاثين يوما القابلات، سوى بنصفها، فالنصف الاخر سيذهب، هبة خالصة، كما كان يقضي الأمر الاداري الملزم للجميع، بالأسهام بدفع تكاليف أجراء عملية فتح إنسداد في أمعاء مديرهم الغليظة...

بنصف الهمة بدأ تسكعه، وبلامبالاة قرأ كل ماوقعت عيناه عليه من إعلانات لمحال وشركات ومطاعم ودور سينما، غير أن قدميه قادته، أثناء مسيره، دونما أية مقاومة، الى واجهة أحد المطاعم، إذ أمتلأت خياشيمه برائحة شواء جبارة، ألصق أنفه بزجاج الواجهة، وراح يرمق بنهم موائد الرواد العامرة بلذائذ الطعام..

ويحدث نفسه بنبرة ناقمة:- هذا إنتهاك آخر مضافا لحقوق الأنسان، أليس الإكل العلني إهانة لمشاعر الآخرين؟! ثم لم لايعي البعض ماللصوم من فوائد جمة؟!.

في لحظة أختل توازن جسده، أذ تدحرجت تحت باطن قدمه زجاجة بيبسي فارغة، فخر ساقطاً على وجهه، ومن فورها طفرت المحفظة من

جيبه، ساقطة هي الأخرى، ولكن في فوهة مكشوفة لبالوعة مياه ثقيلة..، صرخ هلعاً:- محفظتي.. محفظتي..

ما قبل اللحظة، كان الشارع يعج بمواطنيه، أما الان فقد امسى قفزاً قاحلاً، ادار وجهه المدمى نحو كل الجهات، فلم يك من منجد أو مغيث..، أطرق لحظة..، شاهد المحفظة تطفو هناك، فوق سطح المياه القذرة، وجد بعد حين، أن لا مناص من الهبوط أليها.. دلى ساقيه فجفلت أطرافه، حين راحت برودة الماء الثقيل صاعدة تتسرب خلل مسامات جلده، بينما كان بدنه يهبط رويداً رويدا، أعترته قشعريرة وكاد يتقيأ، حتى أمست فروة رأسه تحت فوهة البالوعة، ومستوى المياه كان قد بلغ أسفل بطنه.

صمتاً كريهاً كان يرين في الأسفل فيما عدا أصوات تشبه النواح تأتيه من قاع سحيق، وضوء شحيح راح يغلف مساحة يسيرة من سطح المياه. قال لنفسه والنتانة تزكم أنفه:- (إنه قدري الأعوج الذي لا فكاك لي من الرضوخ لمشيئته). كانت المحفظة تتأرجح هناك على مرمى ذراع، مد يده يلتقطها، ولكن حدث- لسوء الحظ - أن تياراً هيناً تحرك دافعاً بالمحفظة الى أمام، تقدم ليلغي المسافة، غير أن المحفظة أبتعدت مجدداً، حاول أن يسرع في اللحاق بها، لكن التيار صار أسرع منه في دفعها، جرب القفز عليها ليمسك بها بيديه كلتيهما، ولكنه لم يجن سوى أوحال لطخت جبهته، وسوائل ثخينة راحت تسيل ببطء خلل طيات شعره، صرخ بغيظ:- اللعنة... فردد المكان أصداء ساخرة:-

عِنَه .. عِنّه .. عِنّه ..، وكلما تقدم أكثر مضى جسده هابطاً أكثر، تبتلع المياه منه أجزاء جديدة، فيما المحفظة تنأى - دائماً- عن الإمساك بها..، يتوقف فتقف، يمشي فتركض.. تساءل متهكما:- هل أنا في مضمار للخيل، حيث باقة العلف ثابتة البعد دائما عن فم الحصان..

بعد زمن من اللهاث المتواصل، أخذ ضوء ما ينتشر بنحو متدرج، فوق سطح المياه، نظر الى أعلى فرأى بالوعة مكشوفة أخرى، وفاجأه صراخ أحدهم هلعاً:- محفظتي.. محفظتي.. ما لبث أن لمح محفظة أخرى جوار محفظته، وشخصا آخر كان قد أستوى واقفاً بجواره، سأل الوافد، بعد تبادل نظرات هلعة، جاره:-

- كم من الزمن، وأنت هنا؟
- لا أدري.
- أهي مهمة يسيرة؟
- لا أدري.
- كم من الزمن، لبلوغ النهاية؟
- لا أدري.

وفيما مضى الاثنان يخوضان، كانت أقدامهما تتعثر، خطوة إثر أخرى، بكتل أسفنجية رخوة..، راحت تتكاثر كما الفطر عند القاع مكونة طبقة رجراجة متصلة، أما المياه فقد ظل مستواها يرتفع حتى بلغ ذقنيهما، قال الأول:

- من أجل أمعاء مديرنا العزيز.. نسبح.
- الأمر يستحق العناء.. نعم.. نسبح.

وأنهمك الأثنان يجالدان سباحة في مياه يثقل قوامها بإستمرار، الأول بجهد متضائل، أما الثاني لما يزل عند مفتتح (الماراثون)، فيما المحفظتان كانتا دائبتي الهروب..

كانت هناك، بعد زمن أيضاً، بالوعة مكشوفة ثالثة، وكان هناك ثالث، هلعاً، يصرخ:-

محفظتي.. محفظتي..

# جمرة

جمرة أنا. لست أدري متى ولدت؟ ربما لحظة اصطدام حجر بحجر في كهف ما ليلة شتاء باردة أو ربما لحظة مس برق ما عيدان حقل يابسة لكن يمكننا أن نوقن، أنها لحظة فريدة، لا تشبه اللحظة الزمنية المعروفة. إذ بمقدورها احتواء كل اللحظات في الوقت الذي لا تحتوي فيه سوى نفسها، لحظة مستمرة، بتوهج ازلي. كان قديماً في حطب المواقد، واليوم يتقد عند رؤوس السجائر.

أعيش أنا هناك. وأيضاً هنا. في لا مكان وكل مكان. في النهارات الدافئة أو الليالي المتجمدة. في الفصول جميعها. بين أصابعك أو في المزابل. تلفحني شتى الأنفاس، الزكية منها والنتنة، أو اللاهثة منها والساكنة. وفي النهاية. لست معنية باية حال سوى التوهج المستمر، وبدرجة أقل، المراقبة المحايدة..

في الطابق الثالث من بناية قائمة على ضفة أحد شوارع المدينة. نفض الشاب رماد سيجارته، بعد أن أستل نفساً منها، نفث الدخان قائلاً:

- لعبة سمجة.

قال الآخر، بعد أن دلق محتوى كأسه في جوفه، ماسحاً فمه بظاهر يده:

- لكن لا خيار لنا. نحن في الساحة نفسها.

- أين ولى أذن ما حلمنا به؟! هي ذي العاصفة قد خمدت. قلنا سنكون.. ونكون..هه.

ودلق هو أيضاً محتوى كأسه في جوفه. قال الآخر باصقاً:

- علينا فهم شروط اللعبة.

وسحب سيجارة من جيب سترته العلوي، ناوله الشاب سيجارته الموشكة على الانطفاء، حرق بها طرف السيجارة الجديدة، ورمى عقب الأخرى الى الشارع من نافذة مفتوحة، ثم أردف:

- أما أن تلعب أو تغادر.

راح الشاب يسكب من قنينة تتوسط المائدة في قدحه مقداراً من العرق، مالبث مضيفاً اليه كمية مناسبة من الماء، فأستحال لون السائل أبيض عكراً، قال:

- لست أجيد اللعب تحت شروطهم. ولا أريد المغادرة. فهل يمكنني البقاء اذن؟

أجاب الآخر، وكان قد أمتص كمية من الدخان:

- ليس هنا من متفرج. الكل لاعبون.

نهض من مقعده، ومشى ناحية النافذة. ألقى بنظرة حسيرة الى الظلمة المخيمة في الخارج. ثم قذف أليها بأقصى قواه، سيجارته التي توشك أن تنطفئ.

ذات ليلة كانت ملقاة على رصيف الشارع، سيجارة موشكة على الانطفاء، وكانت تنحني امرأة في الثلاثين. متوسطة الجمال. تمد أصبعين ناحلين، تلتقطها لتحرق بها طرف سيجارة غليظة قاتمة اللون. سحبت نفسا عميقا منها فأمتلأت رئتاها بوفرة من دخان فاخر النكهة. قالت:

. حتى دخانهم مختلف.

ثم مضت. عند باب واطئ في عطفة الشارع توقفت. عالجت القفل بمفتاح، فأنفتحت درفته الوحيدة. على طاولة في دهليز قصير ألقت بحقيبة يدها ثم راحت الى المطبخ، وضعت على رف هناك كيساً بدا محتوياً طعام عشائها. رجعت. من باب مفتوح لغرفة، ألقت بنظرة. كان هناك سريران ينام عليهما ولد وبنت. أغلقت الباب، واستدارت لتدخل غرفة مقابلة، على كتف مطفأة للسجائر تركت سيجارتها، ثم وقفت قبالة مرآة طويلة، وأخذت بالتعري. تحسست بأنامل نحيفة. ثنايا جسد ذابل. عبر المرآة شاهدت سريرها بادياً بشرشف رمادي. جفلت. وشعرت بوخزة في صدرها. أستدارت وتناولت السيجارة. أمتصت نفساً عميقاً قائلة:

.كان غبياً بديناً هذه الليلة.

رمت وجه جسدها، بحركة مفاجئة، على السرير. لم تلبث أن انقلبت. السيجارة في يدها وعيناها معلقتان في سقف الغرفة المتصدع. قالت:

- يريدني مساء غد أيضاً. كم كان كرشه ثقيلاً، يرتج ويرتج، لكنه ينتهي سريعاً.

تكورت على جانب السرير. بمواجهة المرآة. شاهدت لوهلة جسدها وقد بدا غريباً.. نفثت نحوه غيمة من دخان. ثم قالت:

. غداً علي شراء تنورة لعائشة وشرائط، وبنطلون لعلي وحذاء.

دهمها وجع في بطنها. نهضت ومضت مسرعة نحو المراحيض. تغوطت وقامت. ثم أسقطت في فوهة المرحاض ما كان قد تبقى من السيجارة الموشكة على الانطفاء.

# حبل سري

كاد اليأس يعترينا تماما، لولا جزم أحدهم، مشيرا علينا، بضرورة عيادتنا للدكتور"المختار" فهو- على حد — زعمه - طبيب عبقري، صيته طبق الآفاق، ، مشهود له بعلاج ماهو أصعب من حالنا، مؤكدا أن الشفاء معقود بيديه، وهكذا عزمنا على الذهاب أليه، ، لكن تنبغي الإشارة الى أن عزمنا ذاك، في مثل هكذا محاولات، ظل يشوبه الوهن ويثقله التردد، لطول مالاحقنا الفشل، وأحبطتنا الخيبات.. فمنذ أن خاطت زوجتي، قبل بضعة سنوات، أقمطة وليدنا المرتقب، باتت كمن تقطعت به السبل في صحراء لاتبين فيها الجهات، تنتظر مخلصا وليس من مخلص. أنهكها الأنتظار وكابدت الكثير، وبقسوة مفرطة، ضغطت على أنفاسها الساعات والأيام والشهور والسنوات، وتركت على هيئتها ومزاج روحها أخاديد ألم عميقات، ولكن قدر تعلق الأمر بي، لم أكن متحمسا، إن كان"الوليد" حضر أم لم يحضر، فقد كنت أعتقد، على الدوام، أن أولادي " الأعظم والأجمل" قصصي، خلاصة وجودي في هذا العالم، آلامي وأحلامي، يتوفرن على ميزة، لايملكها أي كائن على الأطلاق، ميزة عدم الزوال..، غير أن المسكينة

زوجتي ليست، في آخر المطاف، سوى"أمرأة" شأنها شأن الأخريات، اللواتي يعتقدن أن خصوبتهن تعادل، وربما تفوق وجودهن، ومن تفتقد منهن، تلك السمة، تمسي، أذا طال الزمن، مرتعا للملوحة واليباس كأرض بوار..

بالطبع، كنت أشفق عليها، أماحكها تارة، وأسترضيها أخرى، لعلي جهد المستطاع، أهون عليها بعض ما ينؤ به صدرها من هم، ولكن الأخير كان جارفا وراح ينمو كفطر خرافي، إذ ما أن ختم محدثنا نصحه بعيادة الدكتور المذكور، ندت عنها لاهثة، بغيرما إرادة وعلى الفور كلمة"هيا"، مالبث أن جللها، بعد حين، حياء كبير، فلاذت بالصمت..

صباح اليوم التالي، لم يكن صباحا عاديا، ونحن نقف على الرصيف، ومعنا عدد غير قليل، بإنتظار عبور الشارع الذي يمخره، بنحو غير مألوف، سيل من المركبات المسرعة ، ألتفت الى وجه زوجتي فألفيت عيناها مسمرتان بطفل دون الرابعة، ترنوان بإبتسامة عطوف أليه وهو يمسك حبلا قصيرا يؤرجح بطرفه الآخر كلب ضئيل من كلاب الزينة، تلك التي يضاهي حجمها حجوم الهررة ذوات الشعور المتهدلة المترفة، فيما الطفل، والفرح يغمر قسمات وجهه، يتقافز بإيقاع متناغم وحركات الكلب، وفي لحظة، والفجأة تشل الجميع، كان الكلب في وسط الشارع بالضبط والطفل منطلقا يريد اللحاق به، وليست، أيضا، سوى رمشة جفن، والهلع والصراخ يتعاليان، راح الكلب يعوي كما

الذئب، منحنيا يلعق خيوط دم قان تنساب من جثة طفل مهشمة تماما على إسفلت الشارع..

لم أكن قد أفقت من هول الصدمة، حتى ألفيت زوجتي صريعة غائبة عن الوعي تماما، جسست نبضها فكان بطيئا جدا، فيما غدا وجهها ممتقعا كليمونة جافة، لم يمض وقت حتى إنتبهت، بعد أن بلل صدرها ووجهها الماء الذي أسرعت برشه عليها، ولدهشتي نهضت كمن به مس، وهتفت"هيا" تجري جرا، مسرعة تقطع الشارع بلهفة فاضحة..

واجهة البناية التي تضم عيادة الدكتور"مصطفى المختار" تشبه واجهة أثر، كانت قد خلفته حضارة منقرضة، أعمدة متصدعة، جدران كالحة تفح كافورا، وهواء مختنق ينضح عفنا، تحيط بك وأنت تلجها أقواس لاعد لها، أقواس قباب، أو أقواس شواهد، منحنيات جصية بارزة أو ذاوية، توحي في ذات اللحظة بالريبة والإقبال، لكئنما أهلة، تضم طرفيها، في الأسفل، على خوف ما، أوتشرعهما، في اللحظة ذاتها، الى الأعلى تنتظر لذة ما، سوى إنها تنتهي دائما في صلادة الحجر ..

ظمنا درابزين سلم البناية المتهالك، وقد بدا ملتويا ممتدا من دون بداية أو نهاية واضحتين، فيما راح ضوءا واهنا ينبعث من فوق، بالكاد يجعلنا نستوثق مواطىء أقدامنا على درجات السلم التي نهشتها بقسوة عظات وثلمات كبيرة، في الوقت الذي رسمت فيه الرطوبة على جص الجدران مايشبه مخلفات معارك طاحنة، أشداق مفغورة لجثث تعفرها الأتربة، وضلال لأرتال رجال منكسرين أو نساء مستباحات، فيما يجسد

الضوء الشحيح المتراقص على الدرجات، أجداث شوهاء لبهلوانات أقزام تتقافز أمامنا، ونحن نخطو بعسر ومشقة الى الأعلى..

لوحة الأعلان عن عيادة"المختار" توشك على السقوط، تتأرجح بمسمار واحد يحملها من طرف واحد، طرقنا بابا مواربا، فتناهت ألينا حشرجة:- أدخل..

صر الباب بوحشة حين طالعتنا صالة واسعة شبه معتمة وخاوية من أيما موجودات، إلا من نموذج للهيكل العظمي للأنسان قائم في زاوية، يناظره في زاوية مقابلة، هيكل آخر لعجوز ذاوية تفترش طاولة عرجاء، أشارت بسبابتها صامتة، الى باب يتوسط الصالة، فدلفنا الى غرفة فارهة، مضاءة بنحو حسن، ناصعة الأرضية والجدران، تبين سماء زرقاء صافية خلل الزجاج النظيف لنوافذها، حيث يشغل جسد ضئيل يرتدي صدرية بيضاء لامعة، مكتبا عريضا فخما، رفع رأسه فرأينا وجها معافى لرجل سبعيني تعتلي أرنبة أنفه عوينات"كعب الفنجان"، بادرني بصوت حاد النبرات:- دعني معها وأخرج.

قفلت عائدا الى حيث الهيكلين العظميين، ولما لم يكن من مقعد هناك، سوى المقعد المشغول بهيكل"السكرتيرة" مضيت الى حيث الهيكل الآخر، أشاغل نفسي بعد عظامه. كنت وصلت في العد الى السبعين حين شعرت بما يتحسس جسدي، ألتفت فأذا بي بهيكل العجوز واقفا جواري، مفترا عما بدا إبتسامة كشفت لثيتين خاليتين من أيما ضرس، أبتسمت بدوري، فأخذت"المرأة" تقترب أكثر حتى أضحت ملتصقة

بجنبي، أستفهمت ماالأمر؟ ... أجابت بحشرجة لم أفهم منها شيئا، ثم رفعت كفيها مكورتين الى "مكان" ثدييها غامزة بنظرات وقحة، أبتعدت قليلا غير مصدق، لكنها هرعت فالتصقت بي محاولة تطويقي، تخلصت منها برفق مذهولا، تجرأت أكثر فمدت، بنحو مباغت، يدها الى أعلى بنطالي، جفلت وقررت الهرب، ولكن، وفي اللحظة ذاتها، لمحت زوجتي تخرج من غرفة الطبيب، عندها أستردت أنفاسي..، ونحن نهم بإجتياز باب العيادة، التفت الى هيكل العجوز، الذي لم يبدو ذاويا..، فوجدتها تدلق لسانها ساخرة، مشهرة أصبعها الوسطى، وفي عينيها الجاحظتين نظرة خليعة شرهة..

بعد أن أصبحنا خارج البناية، وقد بدت موشكة على الإنهيار، أخبرتني زوجتي أن"المختار" طلب منها عيادته دوريا، وقد فعلت ذلك بحماسة كبيرة.. وهنا علي أن أذكر: هناك الكثير من المتغيرات قد طرأت أثناء عيادتها للدكتور، حيث كنت ألحظ ألوان فساتينها قد أضحت أكثر بهجة، وزينتها أكثر إشراقا، وهي نفسها صارت تحب سرد الطرائف وتضحك لها ملء قلبها، كما أن زجاج نوافذ المنزل أصبحت أنظف وأنصع، وراحت تبدي إهتماما غير معهود بحديقة المنزل، أدخلت عليها أصناف جديدة من الشجيرات، وشذبت وسقت بإنتظام عددا آخر فيها، وبالأجمال أخذت مسحة جمال جديدة توشح أنحاء البيت.

كنت قد بدأت لتوي، وقصتي هذه لم تنتهي بعد، بكتابة قصة جديدة، ولتوها بدأت تنثال الصور والأخيلة والأفكار، وأذا بصرخات حادة

متقطعة تقتحمني، هرعت الى غرفة المنام حيث زوجتي، وجدتها تتلوى كمطعون، حملتها راكضا الى السيارة، وعلى الفور أنطلقت الى المشفى، وأنا في الطريق أنتبهت الى بطنها وقد تكورت بنحو لافت لم ألحظه من قبل، .. متى حبلت؟!.. لست أدري..

في صالة الولادة، كان الدكتور"المختار" حاضرا مع زوجتي التي أصرت أن لايستولدها غيره ... بينما كنت أمكث في الإنتظار، تتملكني موجات عاتية من الهلع والخوف، فألد بدلا عنها ملايين الهواجس والإحتمالات ..

تتصدع الأحجار، تنهمر من عيون الأبدية سيول جامحة، يخترق المستقيم المنحنيات، فتنبثق زهور غضة من شروخ في صلادة الحجر،.. يتهادى بإيقاع عذب راقص صراخ الدفقة البكر، قطرة غيث على أديم صحراء عطشى،.. ولكن أخذ يشج سمعي، في اللحظة ذاتها رعد غريب، كما لو أنه أزيز رصاصة زارقة في رأسي، عويل موجع .. ماذا هناك؟! أندفعت مجنونا، لاألوي على شيء، ركلت الباب... حسنا .. هذا وليدنا يرفس مشرقا، وهذه أمه ناقهة تبتسم، .. ولكن مابال الدكتور"المختار" مسجى على الأرض، تحيط به الممرضات المعولات، وقد أمسى جثة هامدة.

# طيران

كما سمكة نافقة كنت ملقى وسط الصالة الخاوية، وحدك، كنت ملقىً كسمكة لفظتها أمواج البحر، وسكون الظهيرة يشملك، يشمل معك الصالة أيضاً. سحنتك صفراء باهتة، بهتان الظهيرة نفسه. ومسامات جلدك تتسع كثقوب معتمة. تتفتق عن أسراب نمل أسود. نمل أسود ناشط، ينبث في جميع أنحائك، يغطيك برمتك. أنا رأيت ذلك. رأيته بعد أن دعاني هلعاً أبنك. أبنك ذو الأربع سنين، أتتني هلعة تصرخ: ما..ما..ماما.. النمل..النمل... جرجرتني الى حيث ترقد، جرجرني ولم أك لأصدق إذ رأيت ما رأيت.

بالأمس فقط، كنت تردد وتفيض عنفواناً وحياة:ـ أيتها الصعاب. سأقهرك. سأفتتك ذرات لا مرئية، وسوف أسحقك، جذلاً، بجزمتي، عابراً إلى الغد.

فما الذي جرى؟!!

عيون سود عميقة توزعت أنحاء جسدك الهزيل، تتقيح أسراباً تلو أسراب من النمل تلو أسراب. رحت أهش عليها بمئزر قريب. أضرب

حشودها وأصرخ. أصرخ بفزع وأرى. أرى حدقتيك المشرعتين تتسعان، تتآكلان. وشدقك مفغوراً على نداء ما، نداء يريد أن يخرج ولا يخرج.. في الباحة هناك، قرب الباب الخارجي، كانوا يقفون، أصدقاؤك وذووك، فلان وفلانة وفلان..، يقفون بوجوه مسطحة، وأفواه فقط.

كنت أستغيث بهم، استنجدهم، غير أن أفواههم كانت تنفتح وتنغلق، ثم تنفتح وتنغلق، لكأنما يشتبكون بجدل عقيم، نافدي الصبر، بإنتظار نهاية المشهد، ربما لينفضوا أخيراً كل الى مبتغاه... كنت أصرخ بهم وأهش حشود النمل المتكاثر عليك، صدرك، رأسك، كتفيك وساقيك، أصرخ بهم وأوتار حنجرتي تكاد تتقطع، ولكن لم أعرف، هل كانوا طرشاً، أم كنت خرساء؟!

جرجرني أبنك مرة أخرى. جرجرني ولكن، هذه المرة، نحو الخلف. صارخاً بملء أيضاً:ـ ما.. ما.. ماما.. النمل يمسك بك.. ذعرت، تراجعت والتصقت الى الحائط. أخذت أنكت ثوبي، وأصرخ. دائماً أصرخ. ولما لم يكن من نجاة أو من مجيب، هرعت إلى الخارج، أليهم أصدقائك وذويك، دفعتهم، جررتهم، ركلتهم، ليجيئوك، ينتشلوك من طوفان النمل. ولكن لم أك لأعرف، هل كانوا شواخص من حجر، أم أنني معدومة القوى؟!!

وسط ذهول الجميع، أخذت ترتفع عن الأرض. تحملك أفواج النمل، أذ نبتت أجنحة لها، فأستحالت حشرات طائرة، تحيطك، تحف

بأطرافك، وبروية وهدوء، تفصلك عن الأرض، تصعد بك الى الأعلى. مصعوقة كنت أقرفص بين الأقدام.

مصعوقة أنظر أليك. تطير.. تطير.. أعلى فأعلى.

لامست السقف، ثم أتجهت، بطيران بطيء وقور. ناحية الباب المفتوح، خرجت. كان الحشد، حشد الأصدقاء وذوي القربى، متصلباً بأفواه فاغرة، وعيون جاحظة تتسمر عليك، فوق رؤوسهم، سكنت طائراً للحظة، فأصيب الجميع بذعر مفاجئ، ولاذوا بالفرار نحو جهات شتى، فيما رحت تطير وتطير، أعلى فأعلى..

# الصرخة الأولى

* إلى روح أسماعيل عيسى بكر

الأمر الملغز الذي وهنت محاولات إدراكه حتى الساعة: لم هذا الكم اللامحصور من الأرحام لإمه؟!..وكيف تمكنت من الإتصال ببعضها، كحجرات تنتظمها دهاليز لا نهائية في كهف عظيم؟

وجد نفسه مرة في بطن واحد من تلك الأرحام، مكوراً يضم الى انبعاجة بطنه، ساقيه وذراعيه، وعلى الرغم من أن حكمة الأيام منثورة بوضوح ما بين غضون جلده والشيب في مفرقه، ظل فمه ملتصق الشفتين، ينوس لسانه فيه، كطائر مكبل في قفص.

كان متكئاً الى عمود معدني ذي قطر عملاق، يقوم شاهقاً فوق دكة كونكريتية عريضة، تغلفها قطع من السيراميك المنقوش بإيقونة رجل كث اللحية وشعر الرأس، عار سوى أنه يستر وسطه بخرقة بالية، فيما ينوء ظهره بحمل صخرة جبارة، مناضلا للأرتقاء بها الى أعلى..

الدكة تلك ، تحتل مركز باحة ضيقة صلدة كما قبر، في الوقت الذي تبدو فيه مطاطة كما رحم..، تكتسي جدرانها بحلل متباينة، تلتبس النهايات منها بالبدايات، إذ لا فاصل بين تكويناتها وألوانها أو أنوارها

وظلالها، على الرغم من وجود كشافات كهربائية هائلة الإضاءة، هناك في أعلى العمود، ذوات حدقات متسعة، تبعث بوهج أشعتها بكثافة لا تضاهى، الى أدق ما تشمله الباحة.

تبدو عائدية الباحة لمحطة قطارات مركزية، ويمكن للمحطة تلك ان تكون في قلب مدينة عصرية، فيما تشير الدلائل، بالتواتر، أن الخرائط تلفظها...

كل داخل الى الباحة لابد لرجليه أن تبتلا، فعند المدخل لا يسعك تحاشي صنبور للماء، أعتوره عطل فجعل الماء يتبدى فوق مرمر الباحة الصقيل بلورياً صافياً، يعكس كما المرايا، صور الأقدام الراكضة التي تنثر الرذاذ على بعضها البعض وصوب كل إتجاه، فتتشظى- بفعل ذلك - قطرات الماء وقطع المرمر في مرأى بانورامي لايتسق مع نسق سوى نسقه.

من موضعه ذاك، فوق الدكة، منبعجا يضم الى بطنه اقواس ساقيه وذراعيه، اخذت عيناه تتمردان على أغماضتي جفنيه الثقيلين، تجوبان المجاهل المحيطة، رأى في أستقامة نظره، قطة وكلبا يتماطلان تحت نثارالماء ، يتبادلان الفر والكر، التحت والفوق، تلتحم أطرافهما وتنحل، مغمورين بشبق مضمخ بمواء متأوه ونباح مثير، ما جعل النثار يتطاير أكثر فأكثر، ليلمس في الجوار أربع أرجل تتمرأى واضحة أسفل مصطبة خشبية، أثنتان كبيرتان والأخريان ضئيلتان، متخالفتان رجل فوق أخرى، كل زوج بمفرده، لم يلبثا أن إنحلا رويدا، لتستقران فوق

أرضية الباحة المرمرية، والماء منساب يحيطهما. راحتا تتحاوران بوجل ماانفك منحسرا ، ليشتبكا بجدل في سورة هياج لم تسكن حتى أفضت بالمصطبة لأن تصبح بثماني أرجل...

سيح الماء المتسارع أجتاز الباحة، وصل حيث السكك الحديدية، التي كانت تتلوى كما بطون الحيات، وذات السيح يشق، متعامداً عليها، سككه الخاصة، أما مؤخرات القطارات الرابضة فقد ظلت تختض كأرداف خيل تلسعها سياط المتبارين، من دونما إعلان عن مباراة، متأهبة ترنو بإعناقها صوب أصقاع لا مرئية، وقع حوافرها ينتظم، بتناغم فريد، مع حوافر أقدام المغادرين الراكضة، تسابق السيح المتصل ورذاذه، بغيرما مبالاة بالبلل الذي راح يمتص دؤوبا طلاء الاسيجة الملونة، لتنفلت من سطوحها، قبيل أن يلمسها الماء، فراشات هلامية، سابحة في سماء لا لون لها..، ويمضي البلل مزدرداً بشهية كل ما أشتملته الباحة، حتى أن مرمر الدكة الصلد راح ينحت فيه الماء جارفاً، في ممراته الخاصة ما تهاوى منه ومن إيقوناته وراح الرجل، حامل الصخرة الجبارة، مهشما، مفتتا، يطفو مع أعقاب السجائر والاكياس الورقية المدعوكة ونفايات أخر، على سطح الماء...

العمود المعدني العملاق نفسه أخذ يحتمي من التداعي مختبئا وراء من كان يضم الى انبعاجة بطنه، ساقيه وذراعيه، والذي أخذ يتصالب الان و تنتصب هيئته، كما لو انه ينتفض، بغضب، محتجا على ماتشهده عيناه .. بعد حين بدا أن سحب دوار ما، بدأت تتجمع في رأسه، لما

كان نظره مسمراً بمرأى دوران لاهث لدجاجة منفوشة الريش، تدحرج قبالتها، بسرعة مضاعفة بيضة، محدثة جلبة ورذاذاً متصاعدين أخذا يدفعان به حثيثاً الى تخوم الإغماء، فأمسى مغشيا عليه، ولم يزل موثوقا بوثاق خفي، لايبصر سوى مقطع ساكن من البياض، وتاه عليه أخيراً من كان يدحرج من...

الماء في سيحه المتناسل بلغ اطرافا تمرأت هناك على شاشة اسيجة بعيدة، أو قريبة .. لا أحد يستطيع الجزم. ليختلط الماء بسوائل حمر، إذ كان هناك عنق هش لجسد حمامة بيضاء، كانت تمخره مخالب باشطة لذئب أملح مشدود العضل، أضراسه النافرة سادرة تعلك اللحم الترف، و لسانه الناشف يلعق، بتشف وإلتذاذ ما كان يسيل منها.

بعد حين أخذت القطرات المختلطة الهاربة تصنع عند مساقطها، في غفلة من وعي الكائنات، أنصاف كرات من ماء أحمر، تجسدت بهيئة خوذ خاكية اللون، فرغت من رؤوس معتمريها، فيما راح جزر الماء ومده يتجاذبها دونما غاية.

أختفت بتوال ومن دون فواصل كل ألوان الأسيجة والأرض، و أمسى الأحمر لوناً طاغياً يسود كل جنبات المشهد. نبس متسائلا: ـ لم الأحمر ذاته على الدوام، لوناً للمنبع وللمصب؟.

لحظتئذ بلغ الذروة أختلاط ألوان وأصوات وسمات الكائنات، فأشتبك حد الأندماج النباح بالمواء، والهديل بالعواء، والضحك بالبكاء، فيما أرتعشت بنحو لامثيل له أجنحة الفراشات المنفلتة بطيران لائب، باحثة

عن وجهة ما، صافعة إينما حلت إنبعاجات جسده التي راحت تختض وتختض بنبض شديد الوقع، يبعثه معدن العمود الذي عاد منتصبا شاهقا للتو.

نظر الى أعلاه فرأى ذراعا فولاذية ناشطة تهوي، لحظة تلو لحظة، فوق علامات ماسية مبثوثة بدقة في محيط دائرة بلورية شاسعة، كان العمود ينوء بحملها. عندها أطلقت القطارات المستنفرة، والأضطراب شامل كل شيء، صافراتها مجتمعة، فأطلق هو أيضاً، منفصلاً عن العمود، صرخته الأولى.

# توق قديم

كأي لص، ظل مستثارا متربصا، منذ أن هجع ليلا أفراد عائلته جميعهم، أمه وأبوه وأخوته ذكورا وأناثا، وقد توزعت مناماتهم سطح الدار.

كانت الساعة، على وجه التقريب، قد جاوزت منتصف الليل، وهو وقت يكون فيه سكان المدينة قد غطوا في نوم عميق، بعد نهار تعب ومشقة في طلب الخبز.

حين أخذ يرفع رأسه شيئا فشيئا، كان القمر الخريفي واهنا في إضاءة الموجودات بما يجعل حدود هياكلها غائمة، أجال ببصره، بتركيز مضاعف، في أنحاء السطح ليطمئن من خلود الجميع الى النوم، ثم جلس متوفزا، مستقيم الظهر، متلفتا يمينا ويسارا، وشحنات مختلطة من الأثارة والخوف تنشط، كديدان تنغزه، متغلغلة في زوايا جسمه كلها، مالبث أن دب، محني الظهر، على أربع، متوجها ناحية الستارة المبنية من الطابوق، والفاصلة بين سطح دارهم والدار المجاورة، هناك حيث تتجمع اللحظة، بنحو بالغ القوة والكثافة، كل جوارحه في بلوغ غايته المنشودة..

كان رأسه أسفل حافة الستارة، فيما جسده يلتصق بها، كما لوكان حيوانا رخويا لزجا، تنز مسامات جلده أجمعها، خوفا وشبقا دافقين..

ببطء شديد، رفع جبهته مستطلعا، وهاله أن رأى عشرات العيون المتسعة المحيطة بأطراف ستارة سطح الجيران، شزرا تبحلق فيه...ومن خلفها تراءت منارة الجامع كرمح غليظ يشهق نحو الأعالي، أرتد فزعا وخفض رأسه بسرعة البرق، فرك عينيه لمرات، فكر أن الأمر لايعدو أن يكون وهما محضا، بعد دقائق عاود الكرة، فرأى ثلاثة أجساد تفترش أرض السطح ومهد لرضيع أقرب منها، وبدا سكون النوم وثقله مخيما على المكان، تمالك نفسه، وبذات اللزوجة تسلق الستارة، ليمسي الآن خامس الأجساد على السطح المجاور. جمد للحظة، مسح المكان مستنفرا حواسه كلها، ثم توجه الى حيث مهد الرضيع مستترا به، وفي لحظة عبرت غيمة وجه القمر فأضيء المكان، وحانت منه إلتفاتة، بغيرما أرادة، الى وجه الرضيع، كانت أبتسامة وادعة تنداح على بشرة نقية صافية، أرسل بصره عبر غلالة المهد الشفيفة فصعق لمرأى فخذين بضين ممتلئين ينفرجان وطرف الثوب ينحسر حتى المنتصف منهما.

كانت سمات الجسد الباذخة المشدودة، الواهبة المتمنعة، الصارمة الجذلة، مصدر عناء كبير، لا، بل شقاء ممض يسكنه منذ شهور طوال. الجسد الفارع من دون إستطالة، الممتلىء من دون بدانة، السامق سكونا والراقص حركة، المهيمن في صحوه ومنامه، هاهو ذا الآن،

مطروحا أمامه، كاشفا، ويعد بالمزيد، عن بعض ثمراته المشتهاة، يدعوه، وهو الجائع حد المرض، والضامىء حد التيبس، لأن يثب عليه..

على أربع حبا هذه المرة، متقدما نحو أسفل جسد " بتول" المتجبر حتى في رقدته، غير مكترث بالمتر الفاصل بين فراشها والفراش الذي يحتوي ضآلة جثمان زوجها الكفيف، ولا بالجسد الذي يليه، أبنهما الصبي،. صار الآن مقعيا عند راحتي رجليها بالضبط، وقد غدا بأكمله منتصبا، كسهم متوتر مشدود للغاية، يهم بالإنطلاق..

للحظة هجس ثمة من يرقبه، أدار بصره فأقشعر بدنه لما رأى ذات العيون المحدقة تقابله على حافات الستارة، وعددها قد تضاعف، ومحاجرها أكثر إتساعا.. ورأس المنارة البيضوي وقد غدا خازوقا .. فرك عينيه، ثم راح يطمئن نفسه أنه ذات الوهم، وهم محض .

أنحنى مادا ذراعه، فأمسك بطرف الثوب ليكمل إنحساره حتى الخصر، وأي خصر رأى؟! .. لا .. هتف لنفسه: ليس خصرا أبدا، بل معجزة!! يحق لمبدعها أن يفخر بصنعها. مرت في الأثناء غيمة شفيفة على وجه القمر، فتبدى الجسد أمامه أزرق كأزرقاق لهب، أو كأمواه بحر..

نظر الى وجه بتول، أجفانها المنسدلة، أنفها المستدق، وجنتاها، وقد رسمتا ظل إبتسامة محيرة، شفتاها الشهيتان تينتين قرمزيتين ناضجتين، عنقها المتلألىء بلور صاف، وقد أطرت جانبا منه خصلة شعر منداة

ينتهي طرفها بين تفاحتي صدرها النافرتين...، ياألهي، خاطب نفسه، لست أطلب شيئا أبدا، فقط أتركني لما تبقى من حياتي هنا ..

يدري أو لايدري، بل، يريد أو لايريد، مضت أصابعه الى مثلث الكلسون، شاهرة الوسطى، التي أخذت تنزل ببطء ورهبة وإلتذاذ، عند رأس المثلث المقلوب والذي يتوج منبت الساقين، فتغور أبعد فأبعد في لدانة اللحم المترف الحار، ... هنيهات فقط وندت عن فم بتول آهة مديدة، ولكن في اللحظة ذاتها، بدأ الرضيع يجهش ثم يعلو صوته بالصراخ، فزع صاحبنا وأنكفأ ملدوغا هاربا، ليقرفص خلف المهد، كما لو كان جرذا مهددا بالهلاك.

لم يكن القمر ليرسل أي خيط من ضوء، حين سمع نحنحة الزوج مناديا:- بتول .. بتول .. أقعدي .. الطفل يبكي.

سمعها تتثاءب وتغمغم، ثم تدنو من المهد، تتناول الرضيع لتلقمه ثديها. مستمرا بالقرفصة تمنى لوكان مكان الرضيع، يبكي كما بكى، لتدنو منه بتول فتضمه الى حضنها، حينئذ لن يعود خائفا أبدا.. تلقمه ثديها، حينئذ لن يعود جائعا أو ظامئا أبدا..

وفيما هو على هذا المنوال، ثقلت أجفانه وراح جسده مخدرا يطفو، قسما فقسما على وسائد مترفة من أحلام وردية..

في الفجر، ولحاف الليل يبدأ أنحساره، ليكشف عن دفعة أولى من نورالشمس، فيما مأذنة الجامع القريب أخذت تصدح: الله أكبر .. الله أكبر .. صحا مغمغما متثائبا، على لكزات توقظه..

كانت أمه، تسأله بإستغراب:- خيرك بني؟ ماالذي جرى لك، تترك فراشك وتنام في حضني؟.

# لغو .. لا.. أكثر

*(ولكن من هذا الكتاب يمكن أن تندلع الشرارة الشيطانية،*
*التي يمكنها أن تضرم في العالم أجمع حريقاً جديداً)*
*يورج/ اسم الوردة/ امبرتو أيكو*

حين أولد، علي أن أبلغ الثامنة عشرة، وآنذاك سأكلف بالعمل حارساً في واحد من أربعة أكشاك تتوزع بوابات بناية مهيبة ذات قسمين، أحدهما فوق الآخر، محجوزين عن بعضهما بمكعب من الأثير، لا تستطيع الهندسة الأقليدية تحديد أبعاده، معتم في النهار، متوهج في الليل. القسم الأرضي من البناية يبدأ غائراً في الأرض، عند طابقه المرقم (-١) نحو سلسلة من الطوابق ليس بالامكان حصرها على وجه الدقة، جدرانها الواح من فولاذ صلد غير قابل للاختراق، فيما يبدأ قسم البناية الآخر (الذي نجهل كيف يطفو على كتلة الأثير المكعبة تلك) عند طابقه المرقم (١) صاعداً الى سلسلة أخرى لا حصر لطوابقها أيضاً، (جدرانها) هواء.. فقط هواء.

تقوم البناية في بؤرة لقاء شوارع المدينة، ما عدا شارعاً واحداً، نظنه مثلها، غير أنه لحظة يقترب منها، حتى يكاد يمسها، يستدير ويقفل عائداً... يزدحم على الدوام بحشود مضطربة من السابلة، مجللة بالسواد، غادية آتية، يتقدمها نعش محمول على الأكتاف، ولا يصدر عنها سوى حفيف، كحفيف أسراب نمل ناشطة في المضي الى حتوفها..

تعلو فوق كل بوابة من البوابات الأربع ثلاثة نصب لقردة من الحجر، الأول يغلق بيديه عينيه كلتيهما، والثاني يوصد فمه بيديه، أما الثالث فيصم بيديه أذنيه كلتيهما. عند البوابة الشرقية سهول منبسطة، فيما تطل الغربية على أصقاع رمل ناشفة، وأمام البوابة الشمالية أسنان ناتئة من الصخر، بينما تترامى إزاء الجنوبية رقاع شاسعة من الغرين اللدن، وتحيط البناية من كل أنحائها أسيجة شاهقة من رماح مسننة تلفها كتل من أسلاك شائكة..

البناية تلك كانت مطبعة المدينة المركزية، المكان الذي سيكون عملي في كشك حراسته الجنوبي.

.....

تصف التعاليم الحارس الأنموذج : (عبوس صارم، يمنع بحزم، دخول وخروج أية أوراق من و إلى بناية المطبعة)، لذا سأجتهد كيما أصير أنموذجاً أحوز رضا أرباب عملي، فأبتدع وصايا جديدة ( ينبغي أن تنبع مناعة الحراسة، كنوع أصيل من الغرائز، ليصبح نوم الأرباب في

المستقبل هادئاً، قريراً،رضياً) فتردف العلاوات كتب الشكر والمكافآت في قيدي.. لأنتفخ كبالون ، فتخالني واحداً منهم، أرباب العمل المبجلين، حينها سأكون مفعماً بنعمة السعادة القصوى ، غير أن الحلو، كما يقال . لا يكتمل، أذ ستدهمني الغواية في قامة ورقاء لحواء مكتنزة، ستمر أناملي .كواجب تفتيش معتاد . وفي كل صباح ومساء من كل يوم على صفحتي غصنها، ستتمطى الفضيحة ناشرة روائحها، ساعة تدس ورقة مطوية بين يدي لاقرأها وسيلقى القبض علي بالجرم المشهود.

سأحاكم، ويكون قرار الحكم نقلي الى حيث المكعب الأثيري...، ترى ماذا ستكون وظيفتي الجديدة؟

هناك تلزم التعاليم الجميع بأغلاق البصر، من بدء الدوام حتى نهايته، بشريط معتم لاصق، يمنع النظر إلى نتاج المطبعة منعاً باتاً، وما عليك سوى قذف النتاج في فم محرقة لا يسعك تخيل حجمها، تحتل قلب الأثير الدامس، تستشعر النار عن مقربة ولا تبصر وهجها، يعبئ خياشيمك دخان الحرائق المتصاعد، وتمضي راكلاً كتل المطبوعات نحو المصير المحتوم..

لن أعرف . بالرغم من أن دهراً طويلاً سيمر .كم من مكلف معي،غير أن عشرات الأصوات المختلطة، تبلغ سمعي كل ليلة، تضمر مقاصدها في أحتشادها، تزحف أجواق متحدة، تتهادى برهة كفالس باهت، ما يلبث متسامياً في مارش مقرون بدوي صاخب، تندغم النبرات فيه،

تشتبك مخارجها، تتداخل، تتقاطع، وتنحل أخيراً في نشيج جارح لـ (محمداوي) يقطع نياط الروح، يبثه أحدهم شاكياً وحدته السقيمة وقد أنفض الأحبة عنه..

لن أعي ما يحدث!.. أكاد أجن.. ألكز أحدهم بمرفقي لمرات قبل أن أسمعه من غور سحيق:

. ها.. من؟

. يا أخي، بالله أغثني..

. ماذا هناك؟

. أعرف فقط، ماالذي نفعل؟

. نحرق الأوراق.

. نعم، ولكن لم؟

. اولاً: نرسخ الواقع ..(الضوء) يميت الأحلام.

ثانياً: لاجماع مع (الضوء).. نحدد النسل.

ثالثاً: نشيع(البهجة) ..نبدد (وحشة) ليل المدينة.

رابعاً: تلزم (الضباع) مرابضها.

خامساً:.....

سادساً:.....

..... ثم، ألا ترى معي، أيها الأخ، أن الأوراق لا تحمل سوى لغو.... لغو لا أكثر...

# الديك

لم أك أعرف، ساعة وصلت المدينة، أنني في سبيلي إلى السقوط في براثن شبكة لا خلاص لي منها... ولم أك لأكتشف ورطتي تلك ألا بعد فوات الأوان، بعد أن أمسيت أسيراً أعزل، لا قوة لي ولا حول.

حفيت قدماي، مفتشاً عن فرصة عمل، طارقاً الأبواب كلها منذ شروق الشمس حتى مغيبها، لأعود مساءً بساقين خائبتين، أجرهما خيطين باليين، أو تجراني إلى حيث الرصيف المحيط بميدان المدينة الرئيس، أتكوم عليه مع كثير من أشباهي، متكئين الى أعمدة النيون، كتلاً شبحية في بقع مضاءة بشحة، تقتات بقايانا، ونرقب شاشة الاعلانات الضوئية الضخمة المنتصبة قبالة الميدان، وقد ضهر على سطحها هذا المساء الأعلان التالي:

(فرصة عمل!! فرصة عمل!! لمن يجد الكفاءة في نفسه التوجه فوراً الى العنوان التالي: المنطقة الغربية ـ رقبة الجسر الكبير ـ الشركة العظمى للاستثمار)

من فورها، هرعت المئات تريد عبور الجسر المنبثق من ميدان المدينة، كما لو أن مدا بحرياً عارماً، طرأ تواً، فجرف الوف الزوارق الصغيرة المسلوبة الإرادة، دافعاً بها إلى حيث لا تدري..

وجدتني راكضاً، محاطاً بالحشود، ومأخوذا بفكرة واحدة مهيمنة.. أن أحظى بفرصة مهما يكن الثمن...، كان التناكب والزحام في أقصاها ، وحيز المكان يغص بالحشود اللاهثة، التي كلما ركضت أكثر، أستطال الجسر أكثر، ونأت رقبته عن الامساك بها، ألتفت بعد قليل لوجه النهر، ألفيته كدراً، أذ غطته أفواج من رؤوس السباحين، تضاءل الأمل في نفسي وأنغلق الأفق أمامي، وتسلط هاجس ثقيل، كفأس تدق بلا هوادة على صندوق رأسي.. كيف لي الفوز . وأنا الجائع والمنهك والمخذول . وسط هذه الحشود المستميتة للوصول؟...

كنت أسمع بين أصوات شهيقي وزفيري أصوات صراخ وعويل، أدرت رأسي نحو الخلف، فرأيت الكثير قد سقط صريعاً، تدوسه بلا مبالاة، أقدام الراكضين، تقضي على المتبقي من حشرجاته .. للحظة، جفل بدني، أذ غاصت أحدى قدمي في بطن أحدهم، فصهل كحصان كانت قد كسرت ساقه...

عند التحدب الأقصى للجسر، رأيت هناك كرات الرؤوس ترتطم ببعضها، كنقاط حبر سود مقذوفة بلا أنتظام على وجه ورقة رمادية، وفيما تنجرف الحشود هكذا بلا ايما روية، فجأة شرخت صرخة هائلة كبد السماء كخنجر، أذ انهدمت واحدة من درفتي الجسر، مسقطة

معها كتل كبيرة من الاجساد، كما لو أنها قطع قيرية أنحلت وسقطت عن سقف قديم...، ومع هذا، ظل الجميع منهمكاً بالركض، غير مبال بما حدث، مساقا بقوة خفية مجنونة...، ربما كان ذلك تعلق الأعمى العشوائي بحبل نجاة واه في ليل بهيم..

كانت الحشود، بعد زمن لا يمكن قياسه، تضغط اجسادها بدفع شديد على أسيجة مكتب الشركة المذكورة، يتفاقم صراخها في سعار متصاعد، فيما تنغرز رؤوس الأسلاك في جلد الأبدان غير المبالية... دعا أحدهم، عبر مكبر صوت، إلى الهدوء، مرحباً بالجميع، طالباً منهم الانتظام بصفوف، أذ سيعرضون على لجنة من المشرفين تفحصهم وترشح المناسب منهم لملء الوظائف الشاغرة. وسرعان ما أنتظمت شبكة طويلة كثيرة الالتواءات من أشباح، أو ضلال أشباح، تتشكل سحناتها بأصفرار متماوج عكر. ظهرت اللجنة التي تتكون من عدد من رجال بشوارب ثخان ووجوه عابسات، ومضى كل منهم يحلق شزراً في عيني المتقدم للعمل، ثم يجس عضل كتفيه وساقيه، ومن كان يحوز القبول، يفصل عن طابوره في طابور جديد أخذ يتشكل تواً.

حين تكشفت عباءة السماء عن خيوط الفجر الأولى، كان الطابور المنتخب يضم عشر المتقدمين، بينما تفرقت الحشود المتبقية مثل نفايات كنستها الريح..

وجدتني ضمن الطابور المحظوظ ، الذي أقتادوه الى باحة عريضة بعد أن قسموه مجاميع، يدير كل مجموعة منها واحد من المشرفين، وكانت قد أنيطت بكل مجموعة وظيفة محددة، فغدت تعرف المجاميع بأسماء وظائفها: مجموعة الاطعام، والسقي، والتنظيف، والصحة، والتدفئة والتبريد.. وغيرها من الوظائف التي كانت تلبي أكبر الاحتياجات وأصغرها.

خطب أحدهم بالمجاميع، وكان مسخاً ذا شاربين كثين، يدعونه (المخول)، أكد للوافدين الجدد أنهم ومنذ هذه اللحظة، صاروا أعضاء أصليين ضمن هيكل العائلة، وهذا وحده شرف كبير لحامله، يلزمه أن يفنى .كما هو واجب العائلة المقدس . في خدمة الأب... حاول بعضهم أن يسأل أو يستطلع، غير أن الردع كان أبلغ فعلاً من أية محاولة..

دقت الساعة الدقة الثامنة، فعوى بوق العمل، تفرق الجميع عبر ممرات منتظمة، تخترق صفين من الاقفاص، بهيئة سلاسل لولبية تتصل بداياتها بالنهايات، الصف اليمين: أقفاص معدن كبيرة لامعة، أضلاعها زجاج ملون بهيج، تشتمل أعداداً هائلة من دجاج أبيض موفور العافية، بينما تنتظم يساراً: أقفاص حديد صدئة، ليس لها نوافذ..، عرفنا فيما بعد . أنها غرف معيشتنا.

كان الحقل . موقع العمل . مقاماً على عدة هكتارات مع الأرض، ويشتمل . عدا الأقفاص . على قاعة كبيرة ملحقة بقلعة مهيبة، يمنع

الاقتراب منها، فضلاً عن القلعة بشكل مطلق، لذا باتت لغزاً مستغلقاً على الجميع، حتى نبس أحدهم ذات ليلة، وهو يتلفت مذعوراً:- تلك القاعة.. هناك.. هي قاعة.. التفريخ..، سكت بالعاً ريقه لمرات، ثم أضاف:ـ لا يدخلها سوى.. الأب.. عند أنصاف الليالي... ولا يغادرها ألا.. في أول.. الصباح...

لم يكن الأب ليظهر للعيان. فطوال كل ذلك الزمن الذي استغرقه عملنا، لم يحظ أحد مرة برؤيته. كانت أوامره وتعاليمه تردنا فقط عبر ممثله(المخول)، في حين راحت صورته تتشكل في الاذهان من نتف أخبار وحكايات، تقاذفتها الافواه، فبدأ برأس ضخم كثور خرافي، وجسد بالغ الجبروت كديناصور، وأطراف أخطبوطية عملاقة.

تحمل جماعة متخصصة، كل مساء، وحسب الحاجة، عدداً من الدجاج المسمن جيداً، الى المطبخ الكبير، وهو بناء فاره ينتهي بدهليز ملتو ملحق بواحدة من زوايا القلعة، يسمح بمرور شخص واحد فقط، تستخدمه جماعة حاملي الاطباق. وتجري في المطبخ الكبير عمليات الحشو والشواء لأعداد وليمة فاخرة، تقدم في الدعوات المسائية التي يقيمها الأب يومياً على شرف ندمائه. لم نر واحداً منهم قط. لتكتمل لذة مضغ اللحم الطري المحمر على أنغام موسيقى خاصة تصدح بها حناجر الدجاج، فتروق الخواطر وتبتهج حين يتم أخيراً تبادل أنخاب السهرة المؤلفة من نبيذ مركب، تكون دماء الدجاج نفسه جوهر قوامه..